الامانة والمرأة

خطاب لصاحبة مجلة العروس تلاه عنها منشي، الحسناء في حفلة جمعية تهذيب الفتاة السورية في بيروت

« عوض عن غياب محدثكم يا سيداتي ويا سادة . فلا تستغربوا اذا وقوفي فوق هذا المنبر وانتم ترمقوا اسمي في برنامج الحفلة فما انا الا وكيل لا اجيل . وان شئتم فاحسبوني فونغرافا او كراموفونا ينقل اليكم صوت هزار طالما اطرب النفوس بتغريده . فقد كلفتني صديقتي الانسة ماري عجمي صاحبة مجلة العروس ان اتلو خطابها عنها لانها لم تستطع مغادرة الشام لاسباب ضرورية . ومن اولى من صاحب الحسناء بان تتقمص فيه روح صاحبة العروس »

لقد أعجبت بكرامة اخلاقكم وحسن ظنكم بي بدعوتكم لي للوقوف على منبر طالما صدحت عليه اطيار وغنت فوقه بلابل ولست الا قصبة تحركها الريح نبتت على ضفاف بردى ومع ذلك لم تحرم من الحياة بل ما انا الا حشرة من الحشرات الصغيرة المتاسية بين اعشاب الغوطة فتأملوا بمن اتيتم لتنظروا وتسمعوا فتعلموا ان الغرور يسري بين الجموع كما يسري بين الافراد وان الهفوة التي بدرت من هذه الجمعية الكريمة مشجعها نادمة على دعوتي لالقاء كلمة الختام الكلمة التي اخترت لها اهم المواضيع الاجتماعية المؤيدة للوفاق بين الازواج

ان رأيي بكم مخالف لرأي القيصر الالماني القائل ان بيروت اثمن درة في تاج بني عثمان لانها في اعتقادي تاج العثمانية وانتم الدرر التي تلمع فيها ولرب حقيقة وعتها اذهان الحشرات وقصرت عن ادراكها افهام الملوك والعظماء

جمعيتكم هذه هي القلب الذي يهب كيانكم دماء الحياة وتنشيطكم لمثل هذه المشاريع العظيمة هو الشريان يجودوا ما زلتم درراً ثمينة تقلد الاعناق بعقود الجميل وتزين الشعور بخير الاكاليل . ولا تضنوا بها على اطفال يستقبلون الحياة بالدموع كما تستقبلهم بالانين . وتودعهم بالانتحار الادبي كما يودعونها بشوق الى الرحيل

لو كان هذا الفصل صيفاً لآثرنا الجلوس تحت السماء او المسير بين الحقول والشاطئ مصغين لعزف الامواج وغناء الاطيار ولكن الفصل شتاء سادتي تحتاج فيه الى مأوى يحمينا من مفاجأة الصواعق وهطل الامطار

لو لم تكن مئات والوف من الصغيرات في بلادنا بدون مأوى التهذيب الحامي من عصف

الضلال . لما دعتكم هذه الجمعية لتكونوا الملجأ الامين لمواساة هولاء الضعيفات . لتقي نفسها شرّ الابتذال وتحفظ صفاءها من اللطخة السوداء . فيقل عدد تلك الحوادث المفجعة عليها قلوب الصخور الصماء . و يبطل فعل تلك الخطوب المتفاقمة بين الطبقات الثلاث على السواء

كلنا ضعفاء في هذا العالم فاذا لم نتبادل الولاء ولم نأخذ باسباب التعاون باللين والرفق والاخلاص . اذا لم يكن قلب كلٍّ منا ملجأ لشكوى اخيه . فحياتنا عبء ثقيل على كاهل الانسانية . ومثلنا مثل الجبال الهازئة بانقلاب الطبيعة او الفراش الحائم حول مدفئه مسروراً يترنم بانا شيد عرسه جاهلاً او متجاهلاً قرب انقضاء الاجل وسرعة حلول الفناء

عدا عما للمرأة من التأثير في نفوس اولادها فان تهذيبها هو ركن هناء العائلة . وبامانتها تجعل قساوة زوجها ليناً وتكسب اخلاقه دماثة . وعدم تهذيبها كما لا يجهل كل واحد منكم هو السبب المؤدي بالامة العربية الى التدهور والانحطاط . وقد بدا لي وانا اتفحص دقائق هذا التهذيب بانهُ يستحيل على المهذبين ان يحسنوا القيام بواجبهم ما لم يغرسوا في نفوس الطالبات احترام الشرائع المنزلة المتضمنة اشرف المبادىء الادبية واسماها والمتكفلة لو عمل بها باصلاح احوال الناس اصلاحاً تاماً

اذاً ليس التهذيب هو التخرج في المدارس العالية او مجاراة خدام المطاعم في اتقان كثير من اللغات بل هو ان يتعلم كل انسان كيف يعيش وعلى هذه المعرفة يقوم تحسين احوال المجتمع

ان الجمعيات الخيرية التي تتفقد شؤون الضعفاء وتتعهد مداواة اجسادهم هي الوفود السموية او ملائكة الرحمة على الارض واسمى منها هي الجمعيات التي تقوم بتهذيب النفوس الجائعة والقلوب الظامئة التي لا تغذيها الا الفضيلة . هي الجمعيات التي تكون مثالاً للبر والتقوى والصدق والامانة — هي الجمعيات التي تتألف وتتحد بمبدإ واحد غايته انتشال اولئك الضعيفات اللواتي بسبب فقرهن وفقد والديهن يتعرضن لاخطار هائلة ينجم عنها احتضار الانسانية . اولئك اللواتي اذا لم يكن من يرشدهن في حداثتهن يسرعن بالاقتراب من الهاوية . متعقبات ظل اليد السوداء . التي طالما اشارت وتشير الى امثالهن بالهبوط الى اعمق لجج الويلات

فارفقوا بالغضاضة والبساطة وهما الطفل في المهد وافتحوا لتلك العيون التي يشع منها نور البراءة سبيل الرشاد فتامنوا عليهن من الجنوح فيقل عدد الفتيات الشاردات والزوجات الخائنات .

اذا نظرت الى الفضائل كجسم مركب من اعضاء كثيرة تتألم او تقوى معاً حسب النظام السائر بموجبه كما نظر اليه بولس الرسول يخيل لي ان الامانة هي رقبة ذلك الجسم

الامانة ذلك الرداء النقي الذي تنسجه الطهارة وتخيطه البساطة ويلبسه الحب هو عنق الفضيلة هو مخرج الروح هو عماد التهذيب هو الصخرة التي تنبت عليها زهرة المحبة . تشم رائحتها من اقتصاد المرأة في نفقاتها وانصرافها الى اسعاد عائلتها وتهذيب نفوس اولادها

الامانة للرجل كل المجد والشرف وللمرأة كل التحلي والجمال . ولعمري ماذا تبغي المرأة في العصر الحاضر سوى المآب لتحصيل الجمال وعندها ان تحوّل ابصار الاعجاب والثناء عنها اشرّ من يوم الاحتضار

كل ما يعتور مجموعنا من النقص . ذلك الخلل الذي يبدو في هيئة محاكمنا وتجارتنا وشركاتنا ومعاملاتنا حتى وفي بيوتنا بين عائلاتنا غنية كانت او فقيرة . كل ذلك نشأ من سريان داء الخيانة ذلك الداء المخيف الجامع بين كل النقائص والعيوب . الذي لا يزال يلعب ادواراً مهمة على مرسح حياة الافراد والجماعات

قليل هو عدد الامناء قليل هو عدد الاعناق السليمة من العلل والادواء . والخناجر الخالية من الدفتيريا والسرطان

ان البشر على هذا المبدا على ثلاثة اقسام — الاول هم الامناء الذين يظلون امناء احسن اليهم الغير ام اساء . هم الذين يقومون بواجبهم في النور وفي الظلمة في الجهر وفي الخفاء هم ذوو النفوس التي لا تتلطخ والقلوب التي لا يذيبها احمرار الخدود والذمم التي لا يسودّها اصفرارُ الذهب . هم الذين يعدون بالعشرات بينما اولئك يعدون بالالوف وكانهم بينهم واحاتٌ في الصحراء

القسم الثاني هم الذين يكونون امناء مع الامناء وخونة مع الخائنين

مما يضحك ويبكي معاً ان نرى اكثر البشر مسافين بضعف الطبيعة الى الباس كل حالة لبوسها كأن محبة التقليد سمت بهم الى درجة تجعلهم يميلون مع الهواء ويذهبون كل مذهب

امثال هولاء لا يمكنهم السير في سبل الحياة الحقيقية لانهم يزيغون عن مقرّ العقل بسرعة ويحرفون عن نظام الصحة المحال

هل من العدل ان نصير لصوصاً عند ما تداهمنا اللصوصُ اما كان خيراً لنا لو كنا منذ البدء خائنين

القسم الثالث هو عبارة عن فئة تستفرغ البحث والمجهود لتعكير الصفاء وابداء العداء والتضامن عَلَى نقض العهود والمبادىء غير ملتزمة خطة الحياد في استنشاق الناس الهواء النقي ورشفهم الماء الصافي

هذه الاقسام الثلاثة تنطبق تماماً عَلَى جميع احوال البشر من نساء ورجال

اذاً لا يجوز ان تظن سيدتي بان اتباع زوجها او ذويها في كل طريق يسيرون فيها واجبٌ وضروري

لكي يتضح فضلك يا سيدتي يجب ان تحافظي عَلَى مبدإ امانتك ولو تقلبوا عمرهم عَلَى جمرات الخيانة الملذة الى حين والمشقية مدى الدهر

اي فضل لك اذا كنت امينة لزوج امين . ولعمري اي عاقل يرمى نفسه من القمة الى اسفل الهوة اذا رمى غيره بنفسه ايضاً

لينصف الرجالُ ذواتهم . ان الامانة المتهددة المترجرجة المتوعدة من آنٍ الى اخر الناظرة بفروغ صبر لسقوط غيرها لتتدهور وراءه . ليست بالامانة الحقيقية التي يجب ان تملأ فضاء البيت

ما قولكم بالملكة التي تعمل عَلَى تقويض عرشها واهلاك رعيتها وتشتيت شملها عندما تبدو لها خيانة واحد من الرعية ؟

ما اشد جنونها عندما تبيع صولجانها وترمي الى الارض بتاجها اذ تكتشف عَلَى خيانة في بلاطها وذلك لكي تنتقم عَلَى رايها من اولئك الخائنين باقسامهم الناكثين بعهودهم بدلاً من ان تتودد اليهم وتعاملهم بالحسنى لتشفي محبتهم من امراض الحلق

سيدتي اذا دخل زوجك الى البيت متعثراً باذيال القصور فلا تحملي قلبك ال زوايا السبيل ولا تضيعي عرشك في منعطفات الطرق

لا تنادي اللصوص . لا تلجاي الى رحمتهم . لا تختمي بصدورهم فيتفاقم الخطب و يزداد البلاء

اليس في قيامك بالواجب ما يردعُ المحرم ولو بعد ايام كثيرة عن ذلك الجنون الهائل والطيش القبيح ؟

اليس في محبتك لابنك بلسماً لجراح قلبك المتألم الكليم؟

لا تحاربي الداء بالسم الزعاف اذا كنت ترجين رغداً وهناء !

لا تحاولي ضمد الجراح بسيف النقمة فتزداد توسعاً وانفجاراً . شدي اليها وثاق

الامانة واسكبي عليها قطرات من دموع الاخلاص . لانها الواسطة الوحيدة للانقاذ من البئر العميق والدواء الشافي لذلك الداء العضال المؤدي بحياة العائلات

بين تهوّر الاب وضلاله وانتقام الام وجهلها تضيع كرامة ذوي البيوتات مع شرف البنين ومستقبل البنات

كثيراً ما رأيت الخيانة تمثل ادواراً محزنة على مراسح العائلات . وكثيراً ما رأيت بين اولئك افراداً قلائل ممن عرفوا ان ضروب مناظرة ذويهم للانتقام منهم لا يرفع من قدرهم و يطفئ سعير انفسهم بقدر ما يحطّ الجزاء من جنس العمل وما تضرمه المنافسة الجهنمية

اخواتي — على المرأة ان تلازم صمتها عندما تجرح لكي تستر النقص الكامن في عقلها . وعلى الرجل ان يرينا من كبر دماغه في كل يوم . ما يحق معه ان يتقدم ليرمي الحجر اولاً .

هذه هي آية هذا التمدن المؤلف من مزيج سموم الافاعي الغربية ضد المعتقدات الشرقية .

هذا ما اقوله للمرأة الغنية وماذا عساني اقول لتلك التي تتلاعب بها الارياح العاصفة وهي عارية الروح رثة الثياب ؟ ماذا اقول لتلك التي لها بعض المذر عند ما لا تجد رغيفاً يسدّ رمقها ولا محامياً يأخذ بيدها . ولا رداء يستر جسدها ولا قوة تشل ضعفها

لا . لا اقول لها شيئاً . اخاف ان يزداد ذلك اللهيب الذي يتغذى من جمالها و يشرب من قلبها

بل اقول لذوي المشاعر الرقيقة . احثّ ذوي القلوب الكريمة على تاليف الجمعيات التهذيبية ومناصرتها . اكي يأمن ذلك العاجز المحتضر على من يتركها جائعة بقرب فراشه تبلل قدميه بالدموع وحيدة لا نصير لها الا الله وامثالكم الكرماء

ان الحيوان يحافظ و يا للاسف على مبدإه باكثر مما يحافظ عليه الانسان وعندي انه خير لهذا ان يكون ابناً للحيوان الذي يموت في سبيل امانته من ان يكون ابناً للانسان الخوان بالفتاة الذي يسقط عن موائدكم ايها الارباب احفظوا فتاتكم من السقوط . واطفئوا حرّ ظمائها بجرعة من النهر الذي منه تشربون

ليحافظ كلّ على المبدإ السامي اخطأ غيره ام اصاب معها تجاهل الانسان الطريق المؤدية الى الراحة فان له من ضميره الذي يرى وصايا الله باوضح مما يراه هو بعينه دليلاً ونوراً ومرشداً صالحاً يقوده في سلم الحياة ومراقي الفضيلة

لنا نظام ولنا ضمير فلنفتح اعيننا للتأمل والحذر . هما العصا التي تقود خطواتنا وتقينا هول السقوط

فلا يجب ان نعيش بلا مبدأ و بلا نظام ما دامت اعيننا معرّضة لغشاء الاهواء